محمد تامر

في أعقاب الحرير

في أعقاب الحرير

تأليف: محمد تامر السيد

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله

لله الشكر والحمد والفضل على سائر نعمه عموماً، وعلى نعمة إلهامه لي بإتمام هذا العمل الأدبي خصوصاً، وهو الموفق والمستعان. اللهم انصر إخواننا في فلسطين، وثبت أقدامهم وانصرهم على أعدائهم وخاذليهم. اللهم آمين.

تنويه

هذه قصة فلسفية في المقام الأول، ليس هدفها أن تكسر توقعاتك بأحداث صادمة أو تخلب لُبك بعوالم ميتافيزيقية ذاخرة بالسحر والخيالات الفانتازية، وإنما هي بكل بساطة قصة هادئة ومسالمة بمعنى الكلمة، هدفها الرئيسي هو أن تلهب وجدانك ومشاعرك بمزيج صنعته بشغف من الرومانتيكية والفلسفة، تتخلله عذوبة الليل البارد وأنغام الساكسفون، ورقة الحرير ونعومته!

إهداء

إلى زوجتي المستقبلية العزيزة، قبلة حانية وبعد...

كعادتي أُحَيّيكِ بقبلاتي، وأذكركِ بأنك على رأس قائمة ملذاتي، وأخبركِ أنكِ غدوتِ محركاً لروحي، كما أن محركا جسدي هما طعامي وشرابي!

اليوم يا غرامي ونيراني، أهديكِ قصتي القصيرة الأولى، وعملي الأدبي الثالث، بعنوان "في أعقاب الحرير"، وهذه المرة ستكون القصة موجهة إليكِ أكثر من ذي قبل، وستكتشفين عندما تسنح لكِ فرصة قراءتها أن هذا الحرير الذي يسعى إليه بطل الحبكة وأسعى إليه أنا أيضاً هو أنتِ يا حريري!

أنتِ بولعك بالثقافة والموسيقى موضوع قصتي، والحرير هو وصفي لكمال أنوثتكِ وبهائها، حبكِ حرير وعقلكِ حرير وملمسكِ حرير وكل ذرة في كيانك المعنوي والمادي حرير!

لن أطيل الإهداء إذ أن القصة كلها لكِ إهداء، ولا أود أن يزعجكِ هذا يا حلوتي؛ فأنتِ تعلمين أنني لا أستطيع الكف عن إغراق نفسي عمداً في حبكِ والتغزل فيكِ، يا خمري ويا سُكري، ويا شغفي ويا وعيي!

الفضول

في ليلة مظلمة ذات قمر وهاج، وتحديداً في غرفة بأحد الفنادق الراقية التي يذهب إليها كل من يملك أموالاً طائلةً لا يعرف علام ينفقها، استيقظ شاب فاحش الثراء يمقت المال، ونفسه!

نظر حوله فرأى زجاجة نبيذ ممتلئة عن آخرها بالقرب من السرير - ولم تكن قد فُتِحَت بعد - وتذكر أنه هو من اشتراها، لكنه اختار أن يَدَّعِي نسيان ذلك بينه وبين نفسه!

وعندما تابع التجول ببصره في أرجاء الغرفة؛ رأى ثوباً نسائياً أحمر اللون من الحرير ملقى على الأرض، وعليه ورقة طويلة مثنية، ومسدس!

فتح عينيه عن آخرهما وشعر برهبة تعتريه، وقام مسرعاً وهو يزدرد لعابه بقلق شديد ليعاين ما رآه، كان الثوب نظيفاً براقاً زكي الأريج، لكن المسدس كان مناقضاً لكل ذلك بلا شك!

وما زاد من قلقه أنه كان يذكر صاحبة الثوب؛ وهي فتاة حسناء شديدة الإغراء والجمال - ليس بالنسبة إليه - قبلت أن تقضي معه في الفندق ليلة...ممتعة، رغم أنها كانت في الواقع ليلة مهذبة؛ فزجاجة النبيذ لم تُفتَح حتى، وهو لا يتذكر من الأساس أنه لمسها! - أي الفتاة

قاوم صاحبنا خوفه، والتقط الورقة بيدٍ ترتجف وفتحها، ووجد بها رسالة أثنى في نفسه على الخط الذي كُتِبَت به، ثم شرع يقرأ محتواها:

"سأعترف بأن هذه أول ليلة أقضيها في حياتي مع رجل دون أن ينظر إلى جسدي، أو يأمرني أن أتعرى قبل أن أنفر منه وأهم بالهرب، أو حتى يلمسني من الأساس؛ وهذا ما دفعني إلى فعل ما أفعله الآن.

لا تقلق بشأني فأنا بخير، والمسدس يخصني إذ أني تملقت أحد أولئك الذين واعدتهم ليلاً ليأتي لي بواحد؛ كي أقتل به نفسي أو أقتل من تسول له نفسه لمسي رغماً عني!

وقد مرت الأيام وحاولت طرد الفكرة من رأسي عل أمراً يحدث ويغير كل هذا، إلى أن قضينا الليلة الماضية معاً والتي أحيت الأمل بداخلي مجدداً، والآن أصارحك برغبتي وهي أن نقضي واحدة أخرى سوياً، لكني أريدها أن تكون مميزة بعض الشيء!

دعنا نلعب لعبة على مدار تلك الليلة، إن كنت تود أن تقضي معي ليلة أخرى أنت أيضاً فعليك أن تثبت لي رغبتك تلك بأن تلعب معي، أعرف أنني أبدو سخيفة ولكنها لعبة ستجعلك تكتشف المزيد عني، وتجعلك تشعر أنني امرأة شيقة!

رغم أنني أشعر بأنك قد تشمئز مني بعلمك أنني قضيت ليال عدة مع رجال، لكن صدقني حينما أقول لك أنني أشمئز مني أكثر مما تفعل، وأن حياتي خاوية لدرجة جعلتني أحاول شغلها باللذات؛

ظناً مني أن هذا هو الحل، لكني في كل مرة كنت أعود إلى صوابي بمجرد أن ينفرد الرجل بي؛ فيرحل عني ساخطاً!

أتعرفه؟ ذلك الشعور الذي يراودك عندما تكون فارغاً من الداخل أنك بحاجة إلى تجربة شيء جديد حتى لو كان ضدك وضد قناعاتك وكودك الأخلاقي؟!

على أي حال، إن أول سر قد عرفته هو أمر مسدسي، وإذا أردت أن تتابع اللعب فابحث في الغرفة عن عنوان مدون لمكان ما، وركز في التفاصيل المرفقة واذهب إليه بحثاً عن سر آخر من أسراري، وستكرر هذا حتى تصل إلى نقطة النهاية: الحرير!"

كانت هذه نهاية الرسالة الطويلة التي تعجب صاحبنا من صبر صاحبتها على كتابتها، وعندما وصل إلى جملتها الأخيرة ضحك ساخراً، وترك الورقة وقام مبتعداً وهو يقول: "تظن نفسها مميزة...كلهن كذلك! كأن ما لفت انتباهها حقاً لم يكن أموالي!"

لكنه قبل أن يخرج من الغرفة عقد حاجبيه إثر ذكرياتٍ غير ودودة عاودته؛ فعاد ينظر إلى الورقة الملقاة على الأرض بتركيز، ثم اقترب والتقطها مجدداً لكن من جهتها الأخرى هذه المرة؛ فرأى عنوان مكتبة في شارع قريب وبجانبه أيضاً عنوان كتاب ورف محدد له؛ فقال لنفسه ساخراً: "خط يدوي جميل، عنوان مكتبة، عنوان كتاب...هذا الأمر يبدو غريباً وممتعاً بقدر ما هو مثير للسخرية!"

لكن فضوله أجبره ألا يرى الأمر مجرد مزحة سخيفة من صاحبته، وعاوده شعور القلق أن يكون قد أصابها مكروه، إضافة إلى قلقه من الشعور بالذنب إن صح ذلك الظن وذكريات زارت عقله فجأة، كانت تلك هي الأسباب التي دفعته إلى ارتداء ملابسه والتأهب للذهاب إلى المكتبة.

وكان القلق على نفسه هو الآخر من الخطر هو ما دفعه لأخذ المسدس معه قبل خروجه!

الثقافة

وصل صاحبنا إلى المكتبة بعد بضع دقائق، ودخلها ليتوجه إلى الرف المطلوب ويأخذ الكتاب المحدد - والذي كان "قصة الفلسفة" لكاتبه "ويل ديورانت" - ويفتحه دون اكتراث كبير لمحتواه باحثاً عن الورقة التي تحوي الرسالة الثانية ليجدها ورقة طويلة مثنية وممتلئة عن آخرها بالحروف؛ ما حذا به أن يعلق ساخراً: "يبدو أنها لم تكن تعاني من كتابة موضوعات التعبير الإنشائي في المدرسة!"، ثم يشرع في قراءتها:

"إذن فقد وت رسالتي الثانية؛ ولذا فلن أبخل عليك بجزء جديد من قصتي، وسأحكيه عبر إجابتك عن سؤال لا بد أنه الآن يدور بخلدك: "ما سر خطي المهذب وكتاباتي الطويلة؟!

الأمر أنني لست إنسانة سطحية كما قد تساورك الظنون؛ بل مثقفة متعلمة هاوية القراءة والمطالعة؛ وهذا ما حذا بي في وقت ما من حياتي أن أجود خطي وكتاباتي؛ مُحاوِلَةً بذلك أن تكون لي ولو تجربة واحدة مثل أولئك الكُتَّاب الذين تملأ أعمالهم المكتبات.

لكن حلمي لم يتحقق للأسف نظراً لعدة ظروف لا أود أن أخوض في الحديث عنها الآن...لكن ربما أفعل إن حدث وأحببتني؛ حينئذ أقص عليك كل شيء!

لكن رغم ذلك سأخبرك باختصار أنه لم يقدرني أحد حق قدري على الإطلاق، لم يأبه أحد بما أحب أو أفعل...لا أخفي عليك شهوتي للاهتمام التي لا بد أنك لاحظتها بالفعل من رسالتي الأولى!

بأية حال، دعني أخبرك أنني أهيم عشقاً بالفلسفة على وجه الخصوص ضمن فروع المطالعة والعلم، رغم أنني أؤيد تركيز المرء على أن يحيا حياته بعفوية أكثر من تفكيره المستمر والمهلك لعقله بها، لكن لعنة التفكير لا ترحم بأية حال وتخلق في عقل المرء أسئلة أكثر من الإجابات، لكن ما يميز الفيلسوف عنا نحن البشر هو أنه لا يحتفظ بمعاناته لنفسه بل يقرر مشاركتنا إياها، دعني أقل لك أننا كلنا ملعونون بالتفكير ولدينا رؤىً مختلفة عن الحياة، لكن التاريخ يذكر فقط من كانت لديهم الجرأة للبوح بأفكارهم تلك!

وددتُ بيني وبينك لو أن التاريخ يذكرني أنا الأخرى...لكن الأمر حقاً أسخف من أن أتحدث عنه أكثر من ذلك!

...لن أوجع رأسك بمزيد من التفاصيل، ها هو ذا سر قد عرفته عني، فإن كنت تود إكمال اللعبة انظر إلى الورقة الثانية في نفس الكتاب في صفحة [...]، وتابع رحلتك!"

انتقل صاحبنا إلى الصفحة الهدف ووجد بالفعل ورقة بها عنوان لمكان بالمدينة يُدعَى "نادي العُشَّاق"، وملاحظةً نَصُّها: "اسأل النادل عن رسالة تركتها سيدة حريرية!"

انتهى صاحبنا من القراءة وبدأ يفكر في الأمر بشكل أعمق وبصوت عالٍ: "أَهِيَ حقاً خاوية كما الحمقاوات اللائي عرفتهن من قبل أم أنها مفهومة بشكل خاطئ حقاً؟!"

الواضح أن لديها عقلاً غريباً يشبه عقول نخبة المثقفين الذين يعرف صفاتهم بحكم نشأته، لكن ما الذي قد يدفعها لقضاء ليالٍ مع رجال؟ ذَكَرَتْ سابقاً أنها تشعر بالخواء وعدم المعنى وهذا

شعور يفهمه صاحبنا بالمناسبة، لكن...كيف لصاحبة عقل جميل مهذب كهذا أن تشعر...بالخواء؟!

المهم أنه تأكد الآن أنها بالفعل ليست من هذا النوع الكلاسيكي من الحسناوات خاويات الروح اللائي ينتشين بالخمر وتقديس الرجال لأجسادهن؛ بل هي أعمق وأثمن من ذلك بكثير على ما يبدو، وكونها تشعر بخواء يدفعها لفعل ما تفعله يعني أن أمرها حقاً به درجة ما من العمق ربما لم تنكشف بعد!

وهكذا يتوجه بطلنا نحو وجهته التالية...!

الموسيقى

وصل صاحبنا إلى وجهته التالية، إلى نادي العشاق؛ وهو مكان أُوجِدَ في المدينة بالحب لأجل الحب، وقليل من يعرفونه لأن الحب شحيح هذه الأيام كما نعلم!

كان مكاناً يجتمع فيه المحبون والمغرمون والهائمون بأحبابهم، وسط أجواء رومانسية تفوح بالمشاعر الحارة والعطور الطيبة والموسيقى الساحرة، وكان مسموحاً أيضاً للأفراد بالدخول وحدهم ليستمتعوا بأحاديث ومغازلات العشاق كتسلية للروح، أو ليتحسروا على ما فاتهم من نشوة العشق والهوى!

اتخذ صاحبنا مقعداً؛ فأتاه النادل يسأله عن مراده؛ فأجابه به؛ فأخرج ورقة مثنية من جيبه وناولها له قائلاً: "لا داعي لأن تطلب شيئاً بالمناسبة؛ فالسيدة دفعت لك ثمن الجلوس."

عقد صاحبنا حاجبيه ورد: "لا بأس إذن، سأبقى هنا وحدي في سلام!"

ابتسم النادل وابتعد تاركاً صاحبنا يقرأ الرسالة وحده على أنغام الموسيقى الرومانتيكية التي كان عبيرها يفوح في المكان والآذان وقد طغت على تكوينها أنغام الساكسفون الرقيقة والمغرية:

"لا بد أنك قد وصلت بالفعل وجلست وحادثت النادل، لم أتخيل أنك قد تفعل كل هذا لأجلي...لا أعرف في الواقع ما إذا كانت هنالك فائدة من كتابتي لهذه الرسائل في نهاية المطاف أم لا...!

المهم، دعني أحدثك عن جانب آخر مني وهو غرامي بالموسيقى، كتلك التي لا بد أنك تستمع إليها في المكان الآن، هنالك نغمات ساكسفون ساحرة أليس كذلك؟ نادراً ما تخلو موسيقاهم منه؛ فهو على وجه الخصوص ذو أنغام مغرية ومثيرة، ومهيجة للمشاعر إن كنت سأبالغ ولكن بشكل هادئ، دعنا نقل أنه أداة فحش مهذبة!

المهم أنني لا أود الإطالة في الحديث عن الساكسفون كجزء وأنسى الحديث عن الكل والأهم: الموسيقى!

إن شاعريتها حقاً آسرة، أقول عنها دائماً أنها صوت الروح؛ إذ أن الأذنين بالنسبة بها وسيلة لا غاية، بل غايتها الروح، من المثير للشغف أنها تخرج بصورتها اللامادية من الآلات، ومن خلال الأذن المادية تدخل إلى الروح اللامادية، كأنها عادت إلى وطنها بشكل ما!

تليق الموسيقى بالرومانسية جداً والعكس صحيح؛ الأنغام تحكي حكاياتٍ وتتغنى بمشاعر لا تقدر أفصح الألسنة على التعبير عنه، هي امتداد للغة الحب، و...

...أنت مستمتع، أليس كذلك؟!

على أية حال، هنا تنتهي رسالتي الثالثة كي لا أطيل عليك، وقد عرفت عني أمراً جديداً، والآن أظن أن الوقت قد حان لجائزتك الكبرى الأولى: الحرير!

ومن ثم جائزتك الكبرى الثانية: أنا!

فقط اتبع العنوان على ظهر الورقة؛ وستجده؛ وسيدلك علي!

عندما تصل؛ اسأل البائعة عن ثوب ابتاعته السيدة الحريرية، أظنه لقباً غامضاً وشيقاً أليس كذلك؟ ألا يجعلك مفتوناً بي أكثر؟! المهم، لا تقلق بشأن المال فهو مجدداً على حسابي، وقد أخبرتها أن شخصاً سيأتي ويوصله لي، وبالطبع سيكون أنت!

وفي الثوب، وبين ثناياه الحريرية الرقيقة؛ ستجد رسالتي الأخيرة!"

قلب صاحبنا الورقة؛ ليجد عنواناً لمتجر ثيابٍ نسائية قد دُوِّنَ عليها، وليس بعيداً جداً عن مكانه الحالي...

إنها تعجبه!

هي حقاً لا تعبث، هي حقاً تريده رغم أن مستواها الثقافي يبدو أعلى من مستواه بكثير، هي بأفعالها تلك لا تتكبر عليه بل تتذلل له أن تعجبه، ويبدو أنها قد نجحت!

هي ليست فتاة خاوية كما تظن نفسها أو كما ظنها هو، ربما أوهمتها الأيام بأن اهتماماتها وثقافتها سخيفة غير شيقة، لكنه الآن يرى العكس تماماً حتى ولو كان الوحيد الذي سيرى ذلك!

وهكذا، بعد أن مرت بضع دقائق تسلى فيها بالتنصت على بعض المحادثات الغرامية في المكان، قام صاحبنا قاصداً وجهته التالية: متجر الثياب، والحرير!

الحرير

وصل صاحبنا إلى متجر الثياب، ودخل ليبحث عن البائعة المذكورة في رسالة الفتاة إلى أن وجد امرأة شعر أنها هي المنشودة؛ فاقترب منها وحياها، ثم سألها عما أخبرته الفتاة أن يسأل عنه؛ فأومأت البائعة برأسها علامة الفهم وقامت لتحضر ثوباً من الحرير الأحمر الرقيق يشبه كثيراً ذاك الذي كان ملكاً للفتاة في الفندق، وقالت له مبتسمة: "يبدو أن السيدة حقاً تحب المفاجآت!"

بادلها صاحبنا الابتسام ورد قائلاً: "نعم، يبدو هذا حقاً!"

فأردفت بخبث: "ويبدو أنها تحبك جداً!"

ضحك صاحبنا ضحكة وقورة خفيضة وأومأ لها أن أجل، ثم أخذ الثوب وخرج من المتجر، وجال ببصره باحثاً عن مكان يجلس فيه ليخرج الرسالة ويقرأها إلى أن وجد مقعداً ثابتاً على أحد جوانب الطريق؛ فتوجه نحوه وجلس ليفض الثوب باحثاً عن الرسالة، وعندما وجدها أخيراً بداخل أحد الأكمام فتحها، وشرع في قراءتها:

"عزيز جداً على قلبي ومثلج لصدري وصولك إلى هذا الحد، وإلى هذه الرسالة!

ولكنني أعتقد أنك لم تعد غريباً بعد الآن؛ وبناء عليه لم يعد هنالك داعٍ للمقدمات!

هذه المرة أحدثك عن الحرير، وعن قوى الأنثى النابعة من جوهرها...لا بد أنك ستحب ذلك!

تعرف بالطبع أن الحرير هو أكثر خامات الثياب نعومة ورقة، وأزعم أنه أفضل ما يمكن أن أرتديه كأنثى كونه يعكس حقيقتي، وما ينبغي أن أتمسك به من طبيعتي، وإن كنت سألخص لك ما أود قوله عن طبيعتي وحقيقتي كأنثى فسأفعل في كلمة واحدة: النعومة!

والآن، أبسُطُ لك الكلمة!

إن النعومة هي الأمر المشترك بين الحرير والأنثى؛ وأما عن الحرير فنعومته تقتصر على الملمس وحسب، وأما عن الأنثى فنعومتها تتلخص في تعبير واحد: كونها على حقيقتها، كونها أنثى!

والآن، أبسُطُ لك التعبير!

إن نعومة الأنثى هي مكمن قوتها وسطوتها، وهي مجموع عوامل تنبثق من جوهرها الرقيق؛ فأقول لك أن الأنثى الحريرية الحقيقية هي أنثى ناعمة البشرة والملمس، والصوت، والطباع، والعقل، والمعشر، والأهم أنها حَيِيَّةٌ بشكل لا يتعارض مع كل ما سبق!

هذه هي قوة الأنثى الحقيقية، وهذا هو التزامها بحقيقتها الجميلة التي تبعث الرقة والمرح في كل ما يحيط بها، وليست قوتها على الإطلاق نبذها لأنوثتها أو تشبهها بالرجال، هذا في نظري تعرٍّ من الأنوثة!

أجمل الإناث هن اللائي...يَكُنَّ إناثاً بكل بساطة!

هذا ما كان لدي لأقوله في رسالتي الأخيرة تلك، تهانينا؛ لقد ربحت الحرير كجائزةٍ أولى، وربحتني كجائزة ثانية!

هاك عنواني، على ظهر الورقة، تعال إلي ولا تخشى كوني وحيدة؛ لن أقتلك أو أجبرك على فاحشة أو أجرك إليها، أنت الآن تعلم يقيناً أنني ما كنت لأفعل ذلك!"

إثر انتهائه من قراءة تلك الكلمات؛ أحس صاحبنا فجأة بنعومة وطمأنينة غريبتين تجريان في أوصاله، وتسلل إلى أنفه أريج فواح جميل لا يدري له مصدراً، لكنه فهم بعد بضع ثوان أن هذا بالطبع من تأثير خياله وفيضان مشاعره الناجم عن قراءته لهذه الكلمات العذبة وحسب!

إنه يحبها...لا شك في ذلك، بل ويغمر قلبه الشوق للقائها الآن!

وهكذا قلب صاحبنا الورقة ليرى عنوانها، ثم شرعت قدماه تحملانه تجاهها...

وهذه المرة كانتا تحملانه بسرعة الملهوف!

الليل

وصل صاحبنا أخيراً إلى منزل صغير من طابق واحد، لكن عمارته الخارجية الجذابة والحديقة المزهرة التي كان يتوسطها وكونه وحيداً في منطقة شبه خالية من البشر كانت أدلة كافية على أن صاحبه يتمتع بقدر لا بأس به من الثراء، وبقدر هنالك بأس كبير به من حب العزلة!

تنقل صاحبنا ببصره في الحديقة؛ فرأى عدداً ليس بقليل من الأشجار والأزهار ذوات الأريج الزكي، وقال لنفسه ممازحاً إياها: "يبدو أنها أخفت عنك حبها للطبيعة، ربما غيرت رأيها فيك!"

وبعد أن أنهت عيناه جولتهما في المكان؛ تقدم صاحبنا مقترباً من باب المنزل ودق جرس الباب.

مرت بضع ثوان قبل أن تفتح له الفتاة نفسها الباب، وإثر رؤيتها له اتسعت عيناها عن آخرهما وفغرت فاها غير مصدقة؛ فمازحها صاحبنا الذي لاحظ ردة فعلها قائلاً: "لم تأتِ لي أبداً على ذكر حبكِ النباتات، هذا يجرح مشاعري نوعاً ما!"

تحولت ملامحها من دهشة وعجب إلى فرحة غريق أتاه طوق نجاة، وزينت ابتسامة واسعة وساحرة ثغرها وهي تقول: "لم أكن لأخبرك بكل شيء بالتأكيد! اعذرني فقط...أنا لا أصدق حقاً أنك أتيت!"

وفجأة تداركت مزيداً من أبعاد الموقف؛ فعادت إلى الداخل وهي تشير إليه بالدخول قائلة: "أنا حقاً آسفة، أين أخلاقي؟! تفضل!"

تبعها، وعندما أصبحا بالداخل أجلسته الفتاة على أريكة مريحة بالصالة، ثم جلست أمامه على واحدة مقابلة تمعن النظر في عينيه اللتين سحرهما المكان وأخذتا تتنقلان فيه كأنهما غرقتا في دوامة في الفن؛ لوحات على أغلب الجدران لا يعرف رساميها أو معانيها، وكتب متناثرة في أرجاء متفرقة، إضافة إلى مشغل موسيقى عتيق جداً لا بد أنها ورثته إذ أنه لم يعد يُباع اليوم على الإطلاق، وتفاصيل أخرى لم يكن قد أمعن تأملها قبل أن تنتزعه كلماتها من تركيزه وتأمله: "لم أتخيل أنك قد تأتي...أو ربما فعلت!"

عقد صاحبنا حاجبيه ورد مازحاً: "حديث غريب ممن أمضت ليلها في ترك رسائل متسلسلة لي في أرجاء المدينة!"

ضحكت وهي ترد: "نعم، كان الأمر ممتعاً بصراحة!"

-ما أراه هنا أنكِ أقسمتِ بينك وبين نفسك على ما يبدو أنكِ ستجرين قدميَّ إلى هنا، أعلم أنكِ نجحتِ وأهنئكِ، لكن هل لي أن أسألكِ ما إذا كنتِ فعلت هذا الأمر مع غيري سابقاً؟!

=كلا، أنت أول من أخوض معه هذه التجربة الظريفة...الغريبة!

-...قبل أن ندخل في تفاصيل أخرى أود سؤالكِ عن شيء ما...

أخرج صاحبنا المسدس من جيبه وسألها: "ما هذا؟!"

ابتسمت الفتاة بهدوء وثبات غريبَين وهي ترد: "أصطحبه دائماً كاحتياط؛ كخط فاصل بيني وبين الرذيلة؛ إن صدرت من غيري قتلتُ، وإن صدرت مني انتحرتُ!

-اللعنة...ولكن لِمَ تركتِهِ معي؟!

=لأنك...لم ترغب بلمسي حتى! كنتَ أول من منحني الاحترام والنظرات المهذبة؛ فلم أشعر أنك أعطيت اهتماماً لجمالي على حساب كياني، بل وددتَ فقط أن تقضي ليلة...وربما وددتَ وحسب أن تجد الحب، مثلي!

-...وما الذي يجعلكِ متأكدة جداً من ذلك؟!

=لا أدري...ربما حدسي!

-حدسكِ؟! حدسكِ جعلكِ...

=أجل! وعن المسدس فقد تركته معك لأني وثقت بك لتأتي وتنقذني من نفسي، على من أكذب هنا؟! إنني أحاول اصطناع عدم يقيني بقدومك لكنني حرفياً راهنت بحياتي عليه!

-لكن...أكان الأمر يستحق؟! ما هي حقاً مشكلتكِ؟!

=ربما أردتُ أن أشعر أنني مهمة ومثيرة للفضول وحسب، وربما لأنني أعاني من جمالي الأخاذ الذي لم يجعل أحداً يسترق النظر إلي إلا لأجله، فكيف لي أن أطمع حتى بالحب؟!

رغم كل ما حولي ورغم إمكانياتي وثقافتي وذائقتي الفنية ومواهبي إلا أنني...دائماً ما شعرت بالخواء! وهكذا حاولت كثيراً أن أملأه دون جدوى بتجارب ومشاعر جديدة و...قادتني هذه الرغبة والجوع إلى المعنى لتجربة الرذيلة، والبحث عن الشهوة والمتعة! لكن في كل ليلة كنت أكتشف أن بوصلتي الأخلاقية أقوى مما ظننتها عندما يرحل لشخص كل مرة ساخطاً عليَّ من الملل، وغاضباً أنني لم أكن العاهرة التي تمنى أن أكونها!

عندما وصلت إلى هذا الجزء من حديثها أجهشت فجأة بالبكاء، لم يعلم صاحبنا ما ينبغي عليه أن يفعل في مثل هذه الحالات وبالطبع لم يود على الإطلاق أن يلمسها، ليس هي بالذات!

ومرت بضع ثوان قبل أن يقرر الارتجال، وبدأ يحاول مواساتها قائلاً: "لكنكِ أنتِ كأنتِ أجمل مما تظنين نفسكِ حتى، هذا ما أراه على الأقل، هذه الليلة حقاً جعلتني أشعر أنكِ...مميزة!"

رفعت عيناها الدامعتين ناظرة إليه وقد هدأت دموعها؛ فأردف وهو راضٍ أن حديثه بدأ يهدئ من روعها: "فقط اهدئي، أنا لا أعتقد أنني أختلف عنكِ كثيراً بالمناسبة؛ فالخواء ذاته الذي تتحدثين عنه قد أصابني وغيرلي حياتي حتى لو بشكل مختلف عنكِ نوعاً ما، لكني أظن أن النتيجة واحدة في حالتينا...حكايتي أن والدي كان ثرياً جداً وعندما مات ورثت عنه ماله، وهو إرث لو تعلمين حقير جعلني ألومه على ثرائه المادي على حساب ثرائه الإنساني!

بلا مبالغة، كان والدي عبارة عن ثلاجة بشرية!

كانت لدي مثلكِ أحلام وطموحات وددت أن أملأ روحي بها، لكن...كان هذا هو إرثي للأسف: الخواء!

خواء لم أعلم مثلكِ كيف أقضي عليه؛ فسلكتُ مثلكِ أيضاً درب الشهوة وكل هذه الأمور؛ فواعدت الفتيات لسنوات طوال، لكن في كل تجربة لم يحدث بيني وبين كل فتاة منهن سوى تودد أو تلامس بسيط، وغالباً ما ينتهي الأمر بها تطلب مني نصف الكرة الأرضية كهدية مقابل أن نستمر معاً!

وبالطبع كنت دائماً قادراً على ذلك لكني لم أفعله أبداً؛ بل كنت أقطع هذه العلاقات؛ فليس من أطرافها من أحبتني لجوهري أو ذاتي؛ كلهن أردن مالي وحسب!

لم أعلم حقاً أين كان عقلي عندما ارتكبت حماقات كتلك!

ومثلكِ مجدداً بالمناسبة كانت بوصلتي الأخلاقية دائماً حاضرة، حتى في لقائنا منذ بضع ساعات تذكرين بالطبع زجاجة الخمر التي اشتريتها ولم نلمسها حتى!

كل ما أردته حقاً...كان شخصاً مثلكِ!"

شعرت الفتاة بإطراء شديد؛ فبدأت ابتسامتها تعود بالتدريج وهي تسأل: "وما الذي جعلك تراني مميزة ودفعك إلى مسايرتي في...ما ارتكبته من سخافات منذ بضع ساعات؟!"

-في البداية قبلتِ دون مال ووجدتكِ تودين قضاء وقت ممتع وحسب، وأيضاً رأيت ذلك لنفس السبب الذي جعلكِ تفعلين ما فعلتِه وهو أنني شعرتُ أنكِ لستِ كبقية من واعدتهن؛ ففكرت أن أصارحك بإعجابي عندما نستيقظ ورغبتي بأن...نكون أصدقاء على الأقل لبعض الوقت!

لكن نومي كان ثقيلاً إثر كابوس لا أذكره حتى؛ فاستيقظت غير مستوعب للعالم من حولي، وعندما رأيت رسائلك شعرت بصراحة أنكِ...مجنونة!

أوه، لا تسيئي فهمي الآن، اتفقنا؟!

حسناً...قررت بعدها أن ألعب لعبتك تلك بداعي الفضول، وأعترف أنكِ حقاً أَثَرتِ كل ما يمكن أن يُثَار فضوله بكياني، ومع كل رسالة قرأتها لكِ شعرت أنني أحبكِ أكثر!

توردت وجنتاها خجلاً إثر اقتحام كلماته لقلبها؛ فأكمل وقد سَعِدَ بتأثير حديثه عليها: "أنا أفهمكِ؛ أردتِ من يحبكِ لأجل عقلكِ وكيانكِ وليس جسدكِ أو جمالكِ، ولا يختلف هذا كثيراً عما أردته أنا الآخر، وبالفعل أحبكِ لأجلكِ أنتِ وأكاد أصبح مفتوناً بكِ، يبدو أننا نكمل بعضنا!"

نظرت إليه بامتنان جعل عينيها تلتمعان كدرتين من اللؤلؤ، وقالت له وهي تقوم من مجلسها: "تعال نتأمل معاً السماء على سطحي، لم أخبرك بعد أنني أهيم حباً بالليل وسمائه."

ابتسم صاحبنا وهز رأسه موافقاً، ثم قام ليتبعها عبر ممر ضيق بآخره درج صغير يقود إلى سطح المنزل الذي كان ارتفاعه متواضعاً – كما أسلفنا – وكانت قد وضعت كرسيين على السطح، وعندما أشارت له بالجلوس أولاً قبلها صارحته: "ليس لدي بالمناسبة أصدقاء أو أحد يزورني، دائماً ما أجلس وحدي على كرسي واحد، لكني أحضرت أخراً الليلة كما ترى لأن قلبي كان موقناً أن أمراً ما سيحدث!"

ضحك ضحكة خفيفة إثر إعجابه بثقتها، وراقبها وهي تتخذ مجلسها بجانبه بدلالٍ أنثويٍ مغرٍ ومتعمدٍ، وظلا لبضع دقائق يراقبان القمر والنجوم والسماء القاتمة كأنهم سيهربون من ناظريهم!

وفجأة مدت يدها تمسك يده؛ فابتسم دون أن ينظر إليها، وقالت هي بعد بضع ثوان: "لا أدري لِمَ فعلتُ ذلك، إن حكيت هذا لأي أحد فلن يفهمني أبداً وسيظنني مجنونة!"

-أنا أفهمكِ، وأعلم لِمَ فعلتِه!

=يبدو أن هذا كافٍ بالنسبة إليَّ!

-رغم أن هذه قد تكون إحدى أكثر الليالي التي قضيتها في حياتي جنوناً وغرابة، لكن على الأقل كنتِ جزءاً منها!

=لقد تقابلنا حقاً في أوقاتٍ غريبةٍ جداً من حياتنا!

-فلنشكر الأقدار التي جمعتنا إذن!

=لا أودك أن تتركني أبداً!

-ما كنت لأفعل، ليس بعد أن وجدتكِ!

=...أشكركَ لأنكَ اهتممتَ لأمري حقاً!

-وأنا أشكركِ لأنكِ منحتِ حياتي طعماً!

تبادلا الابتسام بشغف لبضع ثوان، ثم عاد بصرها إلى السماء وهي تقول: "والآن، دعني أحدثك عن حبي لليل!"

-يا ليت؛ فلا بد أن لذه سماعكِ تتحدثين عن أمر ما سيكون أعذب وقعاً عليَّ بكثير من قراءة كلماتكِ عنه!

احمرت وجنتاها للمرة التي لا تعرف عددها الليلة، وبدأت حديثها متجاهلة مغازلته خجلاً: "رغم قتامته، تظل لليل أنواره المميزة؛ كأنوار الأنس بين العشاق، والمرح بين الأصدقاء، والذكريات العذبة بين ثنايا الأفكار، لا يزال الليل يتباهى ببصمته المميزة وهي ميلاد الآمال المنيرة وسط ظلماته!

أحب السماء المظلمة جداً، وأعشق القمر وأهوى النجوم، ومغرمة بالثلاثة حين يجتمعون معاً!

وأزيدك من الشعر بيتاً أنني أعشق أنوار المدينة ليلاً حينما تجعل الشوارع كأنها درر لوامع تزين ظلمات بحر لُجِّيٍّ!"

قطعت حديثها فجأة ونظرت إليه لتجده ناظراً إليها بالفعل فاغراً فاه، فضحكت من رد فعله وسألته: "أكان حديثي عذباً لهذه الدرجة؟!"

رد بنبرة توحي بالهيام وملامح تشع بالغرام: "أنتِ أعذب شيء على الإطلاق، أنتِ أعذب من الليل نفسه!"

ومجدداً، مارست وجنتاها إثر رده هوايتهما الجديدة لهذه الليلة: الاحمرار!

وابتسمت وهي تقول له بحنان: "أشكركَ لأنك اهتممت لأمري حقاً!

-وأنا أشكركِ لأنكِ أعطيتِ حياتي طعماً!

ابتسمت هذه المرة حتى كشفت عن أسنانها، وتبادلا الابتسام لبضع ثوان قبل أن يعود بصرهما ليذوب في فسحة السماء، ويتحد مع عذوبة الليل وأنوار الأجرام!

تمت بحمد الله